تأمّلات بحثية حول الحجر الصحي: دراسة اثنوغرافية خلال فترة الحجر الصّحي (03/12 إلى 2020/05/12)

Quarantine a researcher's reflections: an autoethnographic study on the quarantine period (12/03 to 12/05/2020)

Réflexions de recherche sur le confinement du chercheur: étude auto-ethnographique pendant la période confinement (12/03 au 12/05/2020)

د. رزيقة حيزير

جامعة البليدة 2، علي لونيسي

تاريخ الإرسال: 14-01-2022- تاريخ القبول: 2022-12-03- تاريخ النشر: 07-10-2023

ملخص

تعتمد الدّراسة منهج الإثنوغرافية الذاتية الذي يستند على الملاحظة الذّاتية، لمختلف الممارسات والتّجارب اليومية التي عاشتها الباحثة في منزلها بالجزائر العاصمة خلال فترة تميّزت بالضّغط والحذر جراء انتشار وباء كورونا، واملاءات الحجر الصّحي، من خلال محاولة نقلها عبر السّرد الذّاتي المبني على الوصف الدّقيق، واستدعاء الذّاكرة، واستعراض أدق تفاصيل التّجربة الشّخصية لربطها بالسّياقات المختلفة الثّقافية والاجتماعية. وأوصت في الأخير على ضرورة توسيع مثل هذه البحوث التي تعتبر من بين الطرق المؤدية إلى فهم واستنطاق اليومي المحلي المعاش على الهامش زمن الجائحة.

الكلمات الدالة: الاثنوغرافيا؛ الإثنوغرافيا الذاتية؛ السرد؛ الكتابة السردية؛ السرد الذاتي؛ الحجر الصحي.

Abstract

The study adopts an autoethnographic approach based on a self-observation regarding daily tasks and various practices of a researcher who spent a cautious period of pressure due to the Corona pendemic, at her house, in Algiers. The researcher transfers quarantine's impact through self-narration based on accurate description, recall of memory and details of her personal experience, during lockdown period, linking it with social, cultural contexts… by the end, she confirms the necessity of this study and recommends expanding such researchs for a better understanding of the local's daily insight life, during covid-19 pendemic.

Keywords: ethnographty; autoethnographty; narrative; narrative writing; self-narration; quarantine.

Résumé
L'étude adopte l'approche autoethnographique, qui repose sur l'auto-observation des différentes pratiques quotidiennes que la chercheuse a vécues chez elle à Alger pendant une période caractérisée par la pression et la prudence en raison de la propagation de l'épidémie de Corona et les impératifs de quarantaine. La chercheuse restitué l'impact de la quarantaine à travers une auto-narration basée sur une description précise, un rappel de la mémoire et des détails de son expérience personnelle, en la reliant à des contextes sociaux et culturels. En guise de conclusion, elle confirme la nécessité de cette étude et recommande de développer de telles recherches pour une meilleure compréhension de la vie quotidienne de la population locale, pendant la période pendémique de covid-19.

Mots-clés: ethnographie; autoethnographie; récit; écriture narrative; auto-narration; quarantaine.

مقدمة

فرضت فترة العزلة والحجر الصّحي التي عاشها العالم بسبب فيروس كوفيد 19 -covid تقييد الحركة العامة، والتباعد الإجتماعي، فأُجلت العملية التّعليمية في كافة المستويات، وتعطّلت أغلبية الوظائف، وأُلزم النّاس على الانطواء والبقاء في بيوتهم كأداة للضّبط الاجتماعي للوقاية والحد من انتشار المرض. وأدى الهجوم الشّرس من قبل الوباء لكافّة المجتمعات إلى نشوب حروب نفسية وتغيرات اجتماعية أكثرُها قسوةً فقدان الأفراد القدرة على التدخل والتفاعل فيما بينهم، وزعزعة علاقتهم بالأخر القريب، باعتباره مجرد حامل للعدوى، فهو الذي يوقعهم في فخ اللّمس، والعناق، والمصافحة... مقارنة بلآخر البعيد. في ظلّ هذه التّطوّرات المتلاحقة، والشّعور بالمخاطر المحدقة، والغياب التّام للضّمانات، وجدت "الفردانيةُ" التربةَ الخصبة للنّمو المثمر، والتّمركزِ حول الذّات استكمالا لما أنتشه التطوّر التكنولوجي.

بهذا أعاد الافراد النّظر في ابجديات علاقتهم بالسّقف المنزلي وبأجسامهم، فظهرت تصرّفات وحركات يومية استثنائية تعارض ما تعودوا عليه في الأوقات الطّبيعية، كما تغيّر شكلُ الممارسات والطّقوس، وظهرت العديد من الأنشطة المنزلية، وأنماطٍ مختلفة من السّلوكات والقيم الجديدة غير المعتادة. وأدى هذا السّياق المحموم باليوميات الطّويلة، والحبلى بالتوتر والمخاوف إلى دفع الافراد لوضع حزمة من التكتيكات التّرفيهية قصد تفادي مشاهد الملل والهلع، والانشغال المتنامي بالمرض الذي حصد الآلاف من البشر في ظرف وجيز .

الواقع دفعنا إلى تبني تيار بحثي لا يزال يجتهد ليبني لنفسه موقعا هاما في حقل البحوث العلمية، ألا وهو الاثنوغرافية الذاتية كإستراتيجية بحثية يمكن أن توفّر أشكالًا معيّنةً من البيانات الكيفية والمعلومات، خدمة للمعرفة لا سيما في ظلّ الظّروف التي تفرض نفسها حاليا، وهذا من خلال العرض المقنع لاستحضار تجربتي الشّخصية أثناء معايشتي لحالة الحجر الصحي، قصد المساهمة في ابتكار طرائق نقدية تحاول التّأثيث لبداية أبحاث اثنوغرافية جديدة، وإثراء المكتبات والأبحاث التي تصب في هذا المضمار. وعبر تجربة بحثية اعتمدت السّرد الدّقيق لمحطّات يومياتي تحت ظلال الحجر الصّحي، مع محاولة التّحليل الشّامل لهذه التجربة في محاولة لإبراز وفهم تصوّري الخاص للعالم، وعلاقتي به بشكل أفضل خاصّة أنّ الاثنوغرافية الذّاتية هي العمل الميداني المؤدي لرؤية الذّات بطريقة نقدية. فكيف مرت يومياتي في ظلّ الحجر الصّحي؟ وهل اختلفت ممارساتي وطقوسي المعتادة؟

1. الاثنوغرافيا: من وصف الآخر إلى وصف الذات

تستهدف الدّراسات الاثنوغرافية تسليط الضّوء على أدقّ تفاصيل كلّ ما يحيط بالإنسان من ظروف، وعلى تفاعله مع هذه الظّروف، وما أحدثه من تغييرات مادية ملموسة أو معنوية، وقيمية مجرّدة في بيته. وتعتبر الاثنوغرافيا عامة "وصف دقيق لكلّ ما نراه أو نسمعه... أصغر ظاهرة، أصغر سلوك من الحياة اليومية يظهر لنا بالكامل". (Laplatine, 1995, p 505)

لذلك وصفها الباحث الأمريكي دافيد فيترمان David Fetterman أنّها فن وعلم الوصف، إذ يقوم الاثنوغرافي من خلالها بوصف ثقافة جماعة معيّنة، وقد يكون وصف مجموعة قبلية صغيرة في أرض غريبة، أو أحد فصول الحياة اليومية في الطّبقة المتوسطة من ضواحي المدن (Fetterman,1998 , p11)، فهي "فن" تعتمد على الملاحظة بالمشاركة قصد الوصف المكثّف لما يُرى، وعلى الخبرات والقدرات الشّخصية للباحث، وفي نفس الوقت تعتبر "علما" يهدف إلى فهم وتحليل طرق الحياة الأخرى حتى ولو كانت غير مرئية (مألوفة/عادية).

وتكون بهذا الاثنوغرافيا المنهج الذي يمكن استخدامه لجعل هذه الأنماط مرئية. وتشترط على الباحث أثناء إجراء العمل الميداني أو الحقلي القدرة على تحقيق التّوازن بين عضويته الكاملة في الجماعة وهويته كباحث خارج الجماعة." (Genzuk, 2003)، وبما أنّه

يتقاسم يوميات وأنشطة، وممارسات الأشخاص ومختلف أنماط تفاعلاتهم، عليه بالقدرة أيضا على الوصف الدّقيق لما يجري داخل الجماعة من خلال استشعار ما يدور باعتباره عضوا كامل العضوية في المجموعة، وأن يكون متحكّما في النّهج التّحللي من الخارج.

فالدّراسة تتطلّب منه أن يكون داخل وخارج المجموعة في آن واحد حتى يقدّم تحليلا موثوقا مبنيا على أسس علمية دقيقة. ويلجأ الاثنوغرافي أيضا بالإضافة استخدامه الملاحظة بالمشاركة والمقابلة إلى المصادر الخارجية للبيانات ذات الصّلة، وهذا يشمل الاقتباسات، والأوصاف، والمقتطفات من الوثائق... مما يؤدي في نهاية المطاف إلى نتيجة واحدة، وهي الوصف السّردي. كما قد تتكوّن الرّواية من الخرائط والرّسوم البيانية، وغيرها من الأعمال الفنية التي تكون قادرة على المساعدة. (Fetterman, 1998)

وإذا كانت عملية جمع البيانات والمعلومات من الحقل المدروس، وتحليلها في البحوث الاثنوغرافية Recherches Ethnographiquesالمتعلّقة بدراسة الآخرين صارمة إلى هذا الحدّ، فإنّها في البحوث الاثنوغرافية الذاتية Recherches Autoethnographiques لا تتقيّد بكلّ هذه القوانين. إذ يعتمد الباحث على حدسه في عملية جمع البيانات الهامة من خلال سرد قصّته، وتحليل هذه المعلومات المحصّل عليها بطريقة موضوعية. كما يُعتبر نهج الإثنوغرافية الذّاتية تمرينا في السّرد الذّاتي آخذا بعين الاعتبار العلاقة مع الآخرين في السّياقات الثّقافية والاجتماعية.

بالإضافة إلى ذلك، فإنّ الذّكريات النّاتجة عن التّجارب المتراكمة في مسار الحياة قد بنت الواقع الذي يجعلنا حقيقيين (Dubé, 2016). يحثّ بهذا البحث الاثنوغرافي الذاتي القارئ أيضا على التفكير في تجاربه الحياتية الخاصة في سياق بناء الذات، في إطار علاقاته مع الآخرين، وهذا من خلال سرد قصّة حياته بتسليط الضّوء على مختلف تفاعلاته والكشف عن آليات تحوّل ممارساته وطقوسه ومن خلال التّأمّلات الذّاتية، وهو عملية كشف الباحث عن نفسه كونه الظّاهرة المدروسة (عيّنة الملاحظة)، وهو مجال الباحث نفسه. إنّها تشترط أن يكون الباحث عنصرا هاما في سيرورة البحث، ليكون المصدر الرّئيسي للبيانات المعرفية المحصّل عليها من الحقل البحثي، وهذه المنهجية البحثية تذلّل

العراقيل والصّعوبات التي تواجه الباحث في الوصول الى المعلومات المتعلّقة بجمع البيانات. (Ellis, Adams, Bochner, 2011)

كما أنها قد لا تواجه بعض الاشكالات الاخلاقية المطروحة على مستوى البحوث الاثنوغرافية، لا سيما تلك البحوث المتعلّقة بسرية البحث تجاه المشاركين في البحث أو المواضيع رغم أنّها تستهدف استفسارات علمية، لكن يتم إدانتها باعتبارها غير أخلاقية جوهريًا.

رغم اعتبار الباحث الانثروبولوجي "كارل هايدر" Karl Heider أوّل من استخدم مصطلح الاثنوغرافية الذاتية Autoethnography سنة 1975، إلا أنّ مؤسس المنهج الاثنوغرافي الذّاتي هو الباحث "ديفيد هايانو" David Hayano سنة 1979. وقد رافق هذا المصطلح الدراسات الانثروبولوجية التي اجراها الباحثون الانثروبولوجيون لوصف ثقافة جماعة يكون الباحث فيها ملاحظا بالمشاركة. وسرعان ما أصبحت الاثنوغرافية الذاتية أحد الاساليب المنهجية في البحث العلمي النوعي لأنها تعمل بالانعكاسية réflexivity التي تعتبر أهم ميزاتها الأساسية حيث يكون وجهة نظر الفاعل في البحث النواة المركزية في التحقيق الاثنوغرافي. (Denzin, 2006)

في هذا المضمار حاولت الباحثة "ديبورا ريد دناهاي" Deborah Reed-Danahay أن تفكك المكوّنات اللّفظية الأصليّة لمفهوم الاثنوغرافيا الذاتية Autoethnography، أي (الذات) le soi- self، والثّقافة Culture-Cultur (الاثنية)، وسيرورة البحث (processus de recherche) Graphie- Graphy، لتحدّد أنّ هذا النّوع من الابحاث يعتمد على ثلاثة أبعاد رئيسية: بعد الذّات، وبعد الثّقافة، وبعد سيرورة البحث. وهي أبعاد تنعكس جليا على نتائج البحث التي ستختلف باختلاف البعد المعتمد عليه في جمع البيانات سواء على مستوى الهيكل، أو النّية، أو الصرامة. وتعتبر هذه الأبعاد الثّقافية والسوسيوتاريخية مكونات أساسية لحياة الفرد، ما يسمح بدراسة أعمق للواقع الاجتماعي من منظور تفاعله. كما يعاد تأويل جدلية الذّات/ الثقافة في هذا النّوع من البحوث الاثنوغرافية التي يُعتبر فيها الباحث النّواة المركزية للمعلومات والبيانات العلمية. (Dubé, 2016)

أما "كارولين اليس" Carolyn Ellis فتصف الاثنوغرافيا الذاتية بأنّها فن Art، وعلم Science، وذات Self وهي حسب نفس الباحثة طريقة بحثية اثنوغرافية ذاتية تتطلب

الانعكاسية Réflexivity، والذاتية subjectivity والهشاشة Vulnérability، والصدق Authenticity.(Ellis, 1999)

من جهته تكشف الباحثة الكندية "غبريال دوبي" أنّ تفاصيل تحرير البيانات من قبل الباحث تتكئ على أربعة أنواع من الكتابات المتباينة والمعتمدة في كتابة التقارير الاثنوغرافية الذاتية. وتذكر أنّ هناك: كتابات وصفية واقعية Descriptive-realistic writings، وكتابات تعتمد الاسلوب العاطفي الطائفي confessional-emotional style، وكتابات تحليلية تفسيرية Analytical-interpretive writing، وكتابات ابداعية خيالية imaginative-creative writing. (Dubé, 2016) من خلال التصنيف يمكن أن تتضح لنا صورة مضمون وشكل كل نوع من التقرير الاثنوغرافي الذاتي. ويختزل الجدول الموالي أهم الاختلافات الواضحة بين تقارير البحوث الاثنوغرافية الذاتية والاثنوغرافية التقليدية والكتابات السردية المألوفة.

جدول قم 1: التباين بين الاثنوغرافيا الذاتية والاثنوغرافيا والكتابة السردية

	الاثنوغرافيا الذاتية	الاثنوغرافيا	الكتابة السردية
من؟	الذّات	الاخرين	الآخرين
ماذا؟	الثّقافة، التّجربة الشّخصية	الثّقافة	السّرد
لماذا؟	المعاني، المشاعر	الفهم	الاهتمام
هل توجد طريقة في البحث؟	نعم	نعم	لا
هل هناك نظرية؟	نعم	في بعض الاحيان	لا
متى تستخدم؟	فهم الخبرة، الذّات، الثّقافة،	فهم الثقافات الأخرى	الذّات، كتابة قصّة

Source: Kelley, Alysson, Layers of Consciousness: An Autoethnographic Study of the Comprehensive Exam Process, International Journal of Doctoral Studies, Volume 9, 2014, p 347-36.

2. الاثنوغرافية الذاتية ومحاولة تجاوز مبادئ البحث التقليدي

تضع الخصائص البحثية التي تميّز دراسات وأبحاث الاثنوغرافية الذاتية في وضعية التحدي والمواجهة العلمية المستفزة، وهي تحاول تجاوز بعض الأسس والمبادئ الرئيسية لأشكال البحث "التقليدية"، على اعتبار الباحث لاعبا أساسيا، و"هو ما يتناقض بشكل صارخ مع المفاهيم التقليدية بسبب عدم وضوح حدود الباحث/المؤلّف/الموضوع كملاحظ بعيد المدى ومحايد، وغير متحيز، و"غير ضالع" ومسجّل في المجال الإثنوغرافي" (Allen-Collinson, 2012)

إلاّ أنّها من المنطقي أن تتفق مع جوهر البحوث الاثنوغرافية التقليدية التي تسعى إلى الملاحظة الموضوعية، والوصف الدقيق بغية تقديم تقرير مفصّل عن معرفة اثنوغرافية، قد تتناول ثقافة مادية تكمن وراءها ثقافة لامادية حسب المعاني، والدلالات التي تمثل عناصرها المادية، وتعبّر عنها. وهو جوهر الاختلاف عن بقية أنواع البحوث الاخرى خاصة الكمية. ويقدم التقرير الاثنوغرافي الذاتي سردا يرتكز على الفردية.

بشكل عام هذا النّوع من البحوث يعدّ نهجًا بحثيًا يعتمد على الخبرة الشخصية للباحث، لذلك نجده يفيد خاصة ما يتعلق بالثقافة (والثقافات الفرعية) التي يكون عضوًا فيها. كما يكون الباحث في تفاعله الاجتماعي مع الآخرين هو موضوع البحث، وبالتالي يطمس الفروق المفترضة بين الشخصية والاجتماعية، وبين الذات والآخرين وهذا حسب كل من الباحثين "بوخر" و"اليس" و"ريد دناهاي". (Allen-Collinson, 2012)

في هذا الإطار تسرد الباحثة الكندية "غربريال دوبي" Dubé Gabrielleمختلف الاتجاهات بين الباحثين الرائدين في هذا المجال. إذ تحدّد أنّه هناك طرفين أساسيين من الباحثين البارزين، أحد هذين الطرفين يدافع عن المنهج التحليلي، النظرية والهدف من الاثنوغرافية الذاتية، على غرار كلّ من الباحثين "أتكينسون" Paul Atkinson (2006) و"أندرسون" Leon Anderson (2006).

وطرف آخر ثاني يمثله المؤلفون الذين يريدون تغيير العالم عن طريق الكتابة من القلب، مثل ما يذهب اليه كل من "أرتور بوخنر" Arthur P. Bochner و"إليس" Carolyn Ellis، و"جونز" Jones، "ريتشاردسون" L. Richardson، و"سانت ببيار" St-Pierre. ويلتقي الباحث "أرتور بوخنر" Bochner مع "نورمان دينزين" Norman K. Denzin حسب هذه

الباحثة في الطرف المتصل بالموضوعية الذاتية، وضرورة اتخاذ الموقف الواضح للاتجاه الذاتي، وهو نهج مثير للعاطفة والمشاركة مثل ما يذهب اليه أيضا الباحث "بيلياس" Ronald Pélias(2004). ويبحث دينزين Norman K. Denzin (2006) عن شكل من الكتابة التي تعتمد منهجية الاستماع إلى القلب، فهي الطريقة التي نتعلّم من خلالها الحب، والمغفرة، وطرق الشفاء للمواصلة بأمان نحو الامام. (Dubé, 2016)

ويمكن ذكر العديد من الأمثلة على بحوث الاثنوغرافية الذاتية في مختلف التخصصات المتباينة، على غرار ما قدمه الباحث لاغوت Langhout الذي اعتمد سنة 2006 على هذا النوع من البحوث في مجال الاخلاق من خلال علم النفس الاجتماعي، وإثبات التعاون البحثي. كما اعتمده الباحث "ماكلفان" McIlvvenسنة 2008 افي المجال المهني لتحديد إجراءات الإرشاد الوظيفي. كما استخدمه باحثون آخرون قصد الكشف عن فهم جديد حول الخبرات التدريبية للمستشارين مثل (Meekums, 2008)، ولتحقيق مزيد من البحوث التعليمية لدى الباحث "ستار" سنة 2010، وكذا توسيع فهم القيادة المهنية والإدارة وهو ما قام به كل من ستيوارت وكيمستر Kempster & Stewart سنة 2010. (Kelley,2014)

ويمكن أن نحدّد أيضا أنواعا مختلفة من المغامرات البحثية البديلة في هذا النّوع من الحقل الاثنوغرافي على غرار الاثنوغرافية الذاتية العائلية التي تعتبر تيارا منهجيا هدفه فهم الآليات التي تساهم بها العلامات التجارية في بناء الهوية العائلية، وتقوية الروابط الموجودة داخل الأسرة، وإدراجها في ممارسات وتمثيلات مجموعة عائلية معيّنة. إذ الباحث الذي يدرس عائلته سيكون في وضع متميز للوصول إلى البيانات المتعلقة بخصوصيات المجموعة وطرح التفسيرات بعيدًا عن متناول الباحث "الخارجي". وسيسمح هذا المنظور على المستوى النظري بفهم أفضل لكيفية أن تكون العلامة التجارية هوية وموردًا ثقافيًا للعائلة، وسيتطلب على المستوى المنهجي تخيل مناهج جديدة أيضا. (Billon, Ezan, 2017)

وتكون حسب الباحث الاثنوغرافية الذاتية فعالة بشكل أفضل عندما يتم تطبيقها على تجربة أو سياق يسعى من خلاله يسعى المؤلف لفهم، أو اشتقاق المعنى من التجارب الشخصية التي تقع ضمن سياق اجتماعي أوسع أو رؤية عالمية. (Kelley, 2014)

بالمقابل لا يمكننا إخفاء استخدام الذات كمصدر للبيانات، ودرجة الابتعاد عن الأعراف الإثنوغرافية الواقعية/ النيو الواقعية realist/neo-realist الراسخة في الكتابة writing نحو أشكال أكثر ابتكارًا، إلى إثارة الكثير من الجدل رغم أنّه حتى أساليب البحث النوعي الراسخة لا تزال تواجه المقاومة، لأنها لا تلتزم بمعايير البحث التقليدية. (Allen-Collinson, 2012)

وعليه ظهرت العديد من الانتقادات لتيار الإثنوغرافية الذاتية، الذي وضعوه محل شبهة، مثل الاستبطان الذاتي، والتحديق في السيرة، والفردية للغاية. على اعتبار أنّ الكتابة بأسلوب شخصي وعاطفي يتحدى العقيدة القديمة للباحث الأكاديمي من حيث الالتزام بالحياد وبالموضوعية، والتي يمكن أن تغيب من الناحية النصية. كما يعتبر هؤلاء الباحثون النقاد أن الإثنوغرافية الذاتية فشلت في تلبية المعايير البحثية الثلاثة التقليدية: الصلاحية validity والموثوقية reliabilityوالتعميم generalisability. (Sparkes, 2000, pp 21-43)

بل يرون أنّها ليست أبحاثًا، ومثلها في ذلك مثل بعض الانواع من البحوث الكيفية (النّوعية)، واعتبروها مجرد سرد للقصص لا غير (Ellis, 1998). ويرى البعض الآخر أنها تفتقر أيضا إلى المقوّمات والمبادئ النظرية والتحليلية الصارمة أي أنّها مجرّد أبحاث تمشي عكس الأشكال التّقليدية للبحث العلمي، ما يجعل منها ابحاثا تحتاج إلى الموضوعية، حتى لو كانت النية من النّتائج والأهداف ليست للتعميم على السكان والثقافات، أو الخبرات والأفراد الآخرين. إلى جانب هذه السّلسلة من الانتقادات يبيّن بعضها أيضا على أنّ الاثنوغرافيا الذّاتية ترتكز بشكل كبير على الأشخاص الذين لديهم بالفعل القوة والامتياز. (Ellis, 1998)

لا شك أنّ كلّ هذه الانتقادات قد استحقّت حق الرّد من قبل الباحثين الذين تبنوا هذا التّيار البحثي، والذين يرون من جهتهم أنّهم يشعرون بالغرض الأساسي من أبحاثهم وكتابتهم، وهو تحقيق العدالة الاجتماعية،(Ellis, Adams, Bochner,2011) بل إنّ التخلي عن الامتياز والسّلطة من خلال تعميق فهم الهياكل الاجتماعية والثّقافية والسياسية الفعلية في مكان يظلم أولئك الذين ليس لديهم سلطة أو امتياز. وتقارير بحوث لإثنوغرافية الذاتية ليست مجرّد سرد لسيرة ذاتية، يمكن دعمها بالملاحظات الببليوغرافية والحكايات الشّخصية، كما أنّها ليست مجرّد غطس في أعماق التّحليل

النّفسي أو تفاصيل روايات القصص الرّومانسية. بل إنّ الاثنوغرافيا الذّاتية تفترض أنّ الذّاتية هي دائمًا من ``الموضوعات الموجودة`` في مكان ما من جغرافية الأفكار، والنّظريات والخطابات والرّؤى الثّقافية. (Dupont, 2014)، والباحث في هذا الحقل يمكنه أن يقدّم خريطة تترجم حركاته ووجهة نظره ونظرته ضمن سياقه الثقافي والاجتماعي.

إنّ نصوص الاثنوغرافية ٱلذاّتية التّلقائية تسمح بنوع من الانتقال والرّبط بين العمل والنّصوص الميدانية من ناحية، وبين سطور النص الأكاديمي المكتوبة من ناحية أخرى. فالأوّل يحوي المصطلحات، والملاحظات الميدانية التي تتعلق بتاريخ الحقل، وبكل ما تمت ملاحظته ومعايشته، بينما يتمتع النّص العلمي بالتفسير. (Dupont, 2014)

كما أنّ نصوص الاثنوغرافية الذاتية تسمح لنا عبر رواياتها المختلفة الوصول إلى عوالم خاصة، قد تعمل على توفير بيانات ثرية أخرى، خاصة مع عامل سهولة الوصول اليها، فهي تجمع من خبرات وممارسات وتفاعلات الباحث كمصدر للتحقيق. (Rondeau, 2011, p- 60) وهو ما يذلّل قيد صعوبة الوصول الى مصادر المعلومات وبعض الاعتبارات الاخلاقية كما سبق الذكر آنفا. وإذا كانت الثقافة تنتشر عبرنا جميعًا، فكيف يمكن أن يكون التحليل الذاتي خاليًا من الاتصال بعالم ما وراء الذات؟

إنّ مهمة وصف حساب ثقافي معيّن أو تجربة اجتماعية قد تكشف لنا عن الحقائق التي لم نكن قد فكرنا فيها من قبل، وهي موثوقة، مدام هناك كُتّاب يرغبون في الكتابة، وقراء يرغبون في القراءة. حتى وإن كان هناك ضعف ناجم عن العواطف، والمشاعر والذّكريات... ولكنّها تبقى تشكّل أساس الحقيقة الناشئة التي نسعى لتكرارها من خلال القصة، بدلاً من الحقيقة المطلقة التي تسعى مناهج البحث التقليدية إلى تحقيقها، والحقيقة المستجدة تتعلّق بمدى صلاحيتها، وتتطلّب من الباحث/الكاتب أن يحكي قصته بطريقة تجعل القارئ يرى ويشعر ويختبر الأحداث من منظور الكاتب. والواضح أنّ الصّلاحية تتحقق عندما يشعر هذا القارئ بالتّعاطف مع موضوع الكاتب. (Kelley,2014)

إن الكاتب حين يشْرع في كتابة رواية سيرته الذّاتية تظهر طبيعة السارد وخبايا تكوينه، وعليه فإن الكاتب العربي وباستثناءات قليلة قلما يقبلُ على كتابة سيرته الذاتية على العكس من الكاتب الغربي وذلك لاعتبارات عدة، منها: عدم الجرأة في الكشف عن خبايا الذات؛ وعدم القدرة على المواجهة الحقيقية، وتبعًا لهذا فالسارد يستخدم ضمير المتكلم

المتماهي مع المؤلف، ويعد هذا نمطًا سرديًا، إذ يكون السارد هو الوسيط الذي ينقل الحكاية ويعرف مجمل الوقائع، مجمل الهموم الصغيرة، يقولُ الشخصيات، يتحدث عنها بالنيابة. ونذكّر هنا أنّ "ميشال دو سيرتو" قدم دعوة للغوص في تفاصيل الحياة التي يبدعها ذلك الشّخص العادي البسيط المنصهر داخل الحشود، من خلال طرحه لإشكالية حبلى برؤية جمالية للحياة اليومية في أبهى تجلياتها البشرية من خلال الكشف عن جملة الابتكارات والإبداعات للفرد العادي.

3. الخطوات المنهجية للدراسة

كان لا بدّ البدء بتقديم دقيق لمفهوم الاثنوغرافيا الذّاتية أوّلا كونها منهجية علمية حقلية (ميدانية/ تطبيقية) تقفز على الأدوات والطّرق البحثية التّقليدية المعتادة، واللاّزمة لجمع البيانات والمعلومات حول الظّاهرة المدروسة، ثمّ هي رغبة منا ربما في تحديد بعض المزايا التي تميّز هذا التّيار البحثي من جهة، وفي الكشف عن الصّعوبات الرّئيسية التي يمكن مواجهتها من جهة أخرى. وقد يكون هذا تبريرا لاستخدام هذه الطّريقة غير التّقليدية، لأنّنا سنواجه حتما بعض المناقشات المعرفية والمنهجية من قبل الزّملاء حول هذا الخيار المنهجي، فالاعتماد على الإثنوغرافيا الذاتية هي مخاطرة أولا بمشاعر ومعتقدات ومواقف الباحث، بل حتى سماته الشّخصية غير المرغوب فيها، لأنّها ستتعرّض للطّبع والنّشر، وهي مخاطرة بحثية أيضا من حيث أنّه على الباحث تجنّب تلوين بيانات ونتائج بحثه بعامل الذّاتية.

سنحاول رغم ذلك من خلال هذا البحث أن نكتب بمصداقية وشفافية جوانب التجربة الشخصية مع مراعاة الضوابط المنهجية التي تتقيّد بها مثل هذه الأبحاث، حتى تكون الخاتمة مصبوغة بأصالة وصدق المعلومات التي تعبّر عن معاني ودلالات الأبعاد الثّقافية والاجتماعية، بما أنّ الاثنوغرافية الذاتية جزءًا من بحث يميل نحو البناء الاجتماعي الذي يستهدف فهم التجربة الإنسانية من خلال نهج انعكاسي، (Dupon, 2014) فهي تتصف بأنّها عابرة للحدود الفاصلة بين التّخصّصات، تحشد الطّاقات العلمية والبحثية المتنوّعة، وتلقي الضّوء على كلّ ما يحيط بالإنسان من ظروف ملموسة ومعنوية، وعلى تفاعله معها.

ونحن مجبرون على توضيح وضعنا في هذا البحث الإثنوغرافي، الذي يستخدمه الباحثون اعتقادا بأنّ الأدبيات التي يقرؤونها لا تروي قصتهم، في وقت يمكنهم ابراز معاني ودلالات مختلفة من خلال تجاربهم الحيّة. وسنبدأ من خلال هذا المحور من الدّراسة بتقديم نظام البحث الخاص بنا، ووصف شروط وظروف جمع البيانات، مع شرح بعض التّعديلات المنهجية التي كانت لازمة لبروتوكول بحوث الاثنوغرافية الذّاتية.

وأخيرا سنبيّن أهم التّقنيات المستخدمة في تحليل البيانات.

-كان البحث: بيت الباحثة ببليدة الدرارية (الجزائر العاصمة)
- فترة الدراسة: من 12/ 03/ 2020 إلى 2020/05/11 أي 60 يوما (شهرين)
- استراتيجية البحث: الإثنوغرافية الذاتية
يتم إجراء الإثنوغرافية الذاتية على مستوى الحياة الشخصية للباحثة، ويمكن تفسير الاختيار بظروف أزمة فيروس كورنا وحل العزلة والحجر الصحي المفروض خلال تاريخ البحث.

1.3 أدوات وطريقة جمع البيانات

يشبه غطس الباحث الاثنوغرافي في عمق الظّاهرة المراد دراستها حالة الغطّاس الذي يتأهّب لاكتشاف كنوز جديدة في أعماق البحار والمحيطات وفي كلتا الصّورتين يحدّد كلّ منهما خريطته التي تحدّد له مجال دراسته وبحثه. فعندما يتفقّد الغطّاس قارورات الاكسجين وقناعه وبذلته. فإنّ الاثنوغرافي يتفقّد بدوره أدواته من كرّاسة ملاحظات وآلة تصوير ومسجل.

ويخطّط كلّ منهما ليختار أدواته لتحليل البيانات أو للغطس. كلاهما يتعمّقان في مجال غير معروف ومجهول من أجل إزالة السّتار عما هو في القلب (Cléret, 2013). لذلك اعتمدنا في هذه الدّراسة على جريدة أو صحيفة الطّريق Le Journal de Bordsكلوحة للقيادة لتسجيل البيانات والمعلومات بدقة حول التجربة اليومية بكل ما تحويه من ممارسات وطقوس وحركة ذاتية وتجربتي مع الاخرين... مادمتُ قد أصبحتُ موضوعَ البحث. كما استخدمت المسجل لتسجيل البيانات والمعلومات، ثمّ إعادة تفريغ هذه البيانات على شكل قصّة، آخذة بعين الاعتبار أدق التفاصيل.

والهدف من هذا التفريغ هو محاولة اعادة قراءة البيانات من خلال فهم السرد وتحليله واستخراج بعض الأجزاء المهمة من بين تفاصيله بغية فهم التجربة الذاتية. ونذكر أنّه في

هذا الوضع يُنصح أن يكون الباحث "ضعيفا امام ذاته حتى ينفتح أكثر على غايات اكتشاف تجربته الشخصية بكلّ تفاصيلها حتى لو تطلّب ذلك الوقوف على السمات غير المرغوب في كشفها، وتُجمع في البحث الإثنوغرافي، البيانات من ماضي وحاضر حياة الباحث ولكن أيضا قد تأتي من الخارج".(Dubé, 2016, pp 3-23)

1.1.3 البيانات امن الماضي

امتدت المعلومت الشخصية والخارجية من الماضي، لفترة زمنية من لحظات تشخيص بعض السلوكيات التي لا تزال ترافقني دون قصد والتي اعتبرها مهمة في عملية بناء هويتي، وقد جاءت هذه البيانات لإثراء المعلومات الآتية من الحاضر وتفسيرها.

2.1.3 البيانات من الحاضر

تتعلّق بالبيانات الشخصية الخاصة بيومياتي التي تم جمعها خلال فترة الحجر الصّحي، مصدرها الحاضر، والتي تعبّر عن مختلف الأنشطة والطقوس والممارسات اليومية. فالاثنوغرافيا هي في الأساس منهج نستخدمه لفهم تفاصيل اليومي حيث تتشكّل أنماط من التّفاعلات والاعتقادات والفهم والاستراتيجيات والتّكتيكات.

3.1.3 الخط الزمني

تم إنشاء الخط الزمني للسيرة الذاتية بإنشاء بانوراما حول الأحداث التي قدّرت أنّها مهمة في عملية مواجهة العزلة المفروضة. وكان الجدول الزمني أداة البحث الأساسية لمسارنا البحثي من ناحيته التّطبيقية، ولجمع البيانات من الماضي ومن الحاضر. وقد قمت بطبعه حتى يكون قابلًا للتحرير طوال عملية جمع البيانات وتحليلها. كانت هذه الأحداث مقيدة ببعض الطقوس الهامة لتجربتي.

2.3 طريقة تحليل البيانات

أتاح لي عمل دمج البيانات في مخطط زمني الاطلاع على أهمية المعلومات المتعلقة بتجربتي اليومية خلال فترة الحجر الصّحي، كما أفادني هذا الجدول او الشبكة أيضًا في تسليط الضوء على أوجه التشابه ونقاط الاختلاف والتقارب بين موضوعات هذه المعلومات. سمحت لي بمراجعة جميع البيانات بالتصنيف وفقًا للمجموعات المواضيعية، وهي عملية تسمى الترميز الموضوعي. ولأنّ هذه الدّراسة طريقة بحث تشمل كلا من السرد الذاتي والبعد الثقافي للباحثة، حاولت فهم ما الذي تريد أن تقوله هذه البيانات وحلّلتها

لربطها فيما بعد (كنت أحدّد بلون مختلف على هامش الدّفتر كلّ كلمة أو جملة أو عبارة ملفتة للانتباه على الهامش).

4. عرض النتائج

1.4. كورونا تغيّر ايقاعي لليومي

اعتدتُ على العيش بين النّاس والتّحدث معهم أثناء وجودي بينهم، كما تعوّدت على قضاء ساعتين بين المواصلات قبل الوصول إلى مقر العمل، حيث أعمل يوميا من السّاعة التّاسعة صباحا إلى الرّابعة مساءا. وعند عودتي إلى المنزل على السّاعة السّادسة، أصل متعبة مهزومة، لكن تضحيتي الذّاتية تجاه البيت والأولاد تخفّف من أساي، إذ يجب أن أهرع لتحضير الطّعام، ثمّ الاعتناء بهم وبفروضهم المدرسية، فانا لا اراهم كثيرا، ولا أحد غيري قد يهتمّ لأمر مدرستهم لاسيما أنّ زوجي مستقيل من وظيفة متابعة الأبناء. حياته في المنزل محصورة في ثالوث مقدس لا يمكن مناقشة سطوره، أو محاولة تغيير عاداته المتأرجحة بين حاجاته البيولوجية (الأكل، الشرب، الاستحمام، النوم)، وحاجاته الترفيهية (التسوّق، مشاهدة التلفاز، التحدّث مطوّلا مع أفراد من أهله أو أصدقائه عبر الهاتف)، فضلا عن حاجاته الرّوحية (الصلاة، التسبيح، وقراءة القرآن).

ظاهرة انسحاب الاب من مراقبة الأبناء واسعة الانتشار في مجتمعنا، إذ يكتفي الازواج اليوم بتوفير الغذاء والأمن والاستقرار الداخلي لعائلاتهم. وأعترف أنّ جانب الأمن لا يمكنني توفيره لي ولأطفالي كما يوفّره هو؛ فما إنْ يُركن حذاء زوجي عند عتبات الباب معلنا حضوره ينتابني وأطفالي شعور بالأمن.

لم تكن مسؤولياتي تتوقف عند حدود الطّبخ، فانا أبقى واقفة كمن يبحث عن مخالفات، وعندما ابدأ في توجيه الانتقادات لكلّ ما هو حولي أغرق نفسي في حملة تنظيف قد تستغرق ساعات، أو أغرق بين اوراق العمل أو البحث، وكلّ ما لدي من اهتمامات. لكنّ الأمر الأهم والأسمى عندي وسط هذه الأيام المتشابهة الشّاقة، هو أن اقوم بكلّ مسؤولياتي حبا لأفراد عائلتي الصّغيرة، فهي لا تزال تحتاج الرعاية والاهتمام، وحسن الاستثمار لكي أقطف مستقبلا أحسن الثمار، دون تقصير طبعا في طموحي المهني.

وسط هذا التيار اليومي الجارف تمنيت مرارا، كلّما كنت متعطّشة الى الرّاحة، لو أستطيع ايقاف الزّمن لأدفن رأسي مستسلمة في وسادة، فلا استيقظ حتى تعود روحي المقاومة. هذا الواقع يشعرني احيانا أنّني تزوّجت، وأنجبت ثلاثة أطفال لأفعل، فقط، كل ما يريده مني هؤلاء، لذلك يمتلئ قلبي في بعض اللّحظات، بالسّخط أنّني في مثل هذا الوضع! لكن الالتزام بالمسؤولية يجعلني ابتلع كلّ التّعب وهذا الحجم من السّخط، واستمر في العمل دون توقف حتى منتصف الليل.

لا أنكر أنّني افتقد كلّ هذا الضّغط، وأتوق الى ذاك النّشاط وهواية التّسابق مع عقارب ساعتي... نعم أنا اشتاق ليوميات ما قبل فترة الحجر الصّحي الذي تتسع نسبته كلّما ارتفع عدد المصابين بالفيروس. لقد فرض الوباء العالمي "كوفيد 19"، جملة من التعديلات الكبيرة على نمط حياتي بعدما أُلزمنا على البقاء في بيوتنا للوقاية والحد من انتشاره. كما تبدّل شكل تعايشي مع الزّمن حيث يبدو وكأنني أسيطر على الوقت!

أصبحت وأسرتي ننام ونستيقظ متأخرين، فلم يعد يومي يبدأ قبل بدايات النور، ولم تعد رائحة بيتنا كما كانت، إذ تنساب في الارجاء رائحة القهوة والأطباق المختلفة في غير مواعيدها. وتغيّرت طقوس الخروج أيضا، كما طغت ثقافة الكلور ومواد التعقيم على علاقتنا بأيدينا. وقبل تقييد الحركة العامة، وفرض التباعد الاجتماعي، شارك زوجي في سباق التزوّد بالمواد الغذائية اللاّزمة كمؤونة لزمن الحجر، فلا أحد يعلم ما قد يحدث أثناء وبعد هذه الجائحة.

والأهم في هذه المساحة الزّمنية أنّني أصبحت أنظّف البيت وأرتبه بشكل لم يكن متاحا لي خلال الفترات السابقة لضيق الوقت. وباتت الشّرفة ملاذي الوحيد كلّما شعرت بالاختناق؛ استنشق الهواء، تارة وأراقب من خلالها تارة اخرى مدينة خيّم عليها الهدوء، فقبعت فوق غيمة وباء تتربص الفرج. أصبحت أجالس أطفالي لساعات، كما خصّص لهم والدهم جانبا من وقته ليتحدّث إليهم ويسهر على قراءاتهم وحفظهم للقرآن.

أستطيع ان أقول ايضا أنّ جغرافية البيت قد تغيرّت، ولم نعد مجرّد سياح في هذه المساحة المكانية، حيث تحوّلت غرفة الاستقبال إلى فضاء للتجمّع العائلي، بعدما كنا نعتبر غرف النّوم أفضل مكان نبقى بين أحضانه. بتنا حذرين من الخارج، ولا نتابع منه

سوى أخبار بورصة الوباء، وأُعلنُ صراحةً أنّني أصبحت أخاف من ارتفاع عدد الاصابات والوفيات أكثر مما أفرح للزيادة في عدد المتعافين.

2.4علاقات اجتماعية رُممت وأخرى عُزلت

لم يُغيّر الوضع الجديد فقط مسار علاقتي بأسرتي الصّغيرة ولا بجغرافية منزلي، وإنّما غيّر أيضا علاقاتي مع اخوتي حيث اصبحت أطيل الحديث مع خمستهم عبر الهاتف حول كلّ التفاصيل. كما أرسلوا الي صور وفيديوهات ليوميات أطفالهم. والجميل في هذه السّاحة الزمنية أنّ ابنة عمي بحثت عني في الشّارع الالكتروني، وأصبحت صديقتي عبر مواقع التواصل الاجتماعي (الفايس بوك والانستغرام)، بعدما تلاشت علاقتنا جراء الزواج ثم الانغماس في ظلمة متطلبات الحياة العصرية.

وتحوّلت بفضل سيطرتي على الوقت مجازيا وسائل الاتصال الى الفضاء الرّحب الذي تعرّفنا فيه على بعضنا البعض من جديد، ونظفنا قلبينا، وأصبحنا نلتقي فيه ونتبادل الأخبار... بل رتبنا لسهرات افتراضية خلال شهر رمضان. ولن أخفي أنّني اصبحت أكثر سعادة من ذي قبل لتواصلي مع ابنة عمي التي كانت تربطني بها علاقة صداقة قويّة، فطالما راسلتها بالبريد عندما كنت تلميذة في الثانوية وطالبة جامعية، كما كنت أقضي معها العطل الصّيفية.

اعادة بناء جسر صلة الرحم مع اخوتي وابنة عمي، بيّن لي مدى بعدي عن الرّحم الاجتماعي الذي ولدت منه، وربما هذا ما كان يسبّب لي نوبات القلق والملل وغيرهما من المتاعب النّفسية التي لم أكن اراها مهمة، وارمي أسبابها على ضيق الوقت. لهذا أنا اتساءل اليوم كيف كنت افتخر بأداء كلّ واجباتي تجاه عملي وأسرتي، وأنا لا علاقة ولا تواصل لي بعائلتي الكبيرة؟ ألا يستمدّ الشخص الناجح وقوده من تواصله الجيّد مع نفسه ومع أفراد عائلته؟!

استقبلتُ شهر رمضان على غرار بقية المسلمين في ظلّ قواعد حجر صحي قاسية على النّفس، تسبّبت في ضرورة الالتزام بضوابط التباعد الاجتماعي، وظهور عادات وطقوس دينية واجتماعية لم أعتد عليها، فالمساجد مغلقة، والزيارات الرمضانية بين الأقارب والأصدقاء أو الجيران محظورة. في هذا الصدد أذكر أن اختلافات مستوى الوعي بين الجيران كانت واضحة، منهم من كان صارما منضبطا، ومنهم من كان لا يلزم بقواعد

السلامة، ويستقبل الاقارب والأصدقاء غير آبه لما ينشر من أخبار حول خطر الازمة. اكتفيتُ بالاتصال الهاتفي مع اخوتي وأفراد من عائلتي الكبيرة وعائلة زوجتي. الشّوارع أيضا عانت من غياب ضحكات الاطفال وصراخهم، غابت عن مائتي الرمضانية حلويات تقليدية وشعبية لم تكن تخلو منها على غرار "الزلابية وقلب اللوز"، وتزيّنت بحلويات مصنوعة في البيت.

قبيل رمضان بأيام، عرضت في الأسواق كميات هائلة من حاجيات شهر رمضان كالمنتجات الغذائية المتنوّعة والتمور وأنواع العصائر والحلوى والفواكه لكن وسط أجواء هادئة تتأبط الذّعر والحذر جراء معايير التباعد، وتكتفي بالتلويح باليد فقط فحتى الابتسامات لم تعد ترسل ظلّها بفعل الكمامات.

التباعد الاجتماعي القى بظلاله على علاقاتي بجيراني رغم أنّها علاقة جيرة لا تشبه تلك التي كانت زمن جدتي وأمي، إذ تربطني بهم بضع كلمات "صباح الخير" أو "مساء الخير" أو "السلام عليكم"، "وكيف حالك؟"، وأحيانا أسجل حضوري في جلسات ولائمهم وأفراحهم أو اتراحهم، وهو ما لم أفعله خلال الجائحة التي الزمتني على الغياب عن الجنازات التي هزت بهم تماما كما غبت عن جنازة زوجة عمي. ولأنّ العرسان أُلزموا على التّخلي عن كلّ الطّقوس المعهودة في مناسبات الزّفاف كجمع الأقارب والأصدقاء، اشعال الألعاب النارية التي كان دويّها يهزّ سماء الحي، أو وضع الموسيقى المرتفعة التي تزعجنا حتى اثناء نومنا فإنّ الأمر خدمني بايجابية، ووفّر على مشقّة التبرير أو الاعتذار.

لا يعجبني في كلّ هذه المظاهر غير رائحة طبق الكسكسي باللحم –رغم أنني نباتية- الذي يعتبر اعز الأطباق التقليدية في الولائم الجزائرية التي لا يمكنها التخلي عنه، إذ كان بإمكان أنفي أن يلتقط الرائحة حتى ولو كانت تبتعد عن منزلي مسافة شارعين، كلّ هذه العادات اختفت وأصبح العريس يأخذ زوجته ويرحل في صمت، يحدث هذا على الأقل في الحي الذي أقطنه.

3.4. حالات قديمة

أتذكر أنني عندما كنت العب مع أقراني في حي 1 ماي بالجزائر العاصمة وأنا طفلة صغيرة، كنا نشبه العائلة الكبيرة في أُلفتنا، وكان اصدقائي يفرحون عندما يلاحظون كيسا بلاستيكيا يتطاير عاليا، إذ يطاردونه والفائز من يحصل عليه في الأخير لم أكن

اهتم بالفوز ولا بمطاردة الكيس بقدر ما ملت إلى ملاحقة ظله الذي كان يبدو لي شيئا آخر لا يشبه الكيس، ولم أكن أكلّ او أملّ من هذه الملاحقة أيضا. لذلك وعندما قررت ان أعايش يومياتي دخلت في جدل مع ذاتي، وتعاركت أفكاري، وتساءلت مرارا في قرارة نفسي: هل ستزورني هواية رؤية ما لا يشاركني فيه غيري؟ لا أعلم حقا خاصة وأنا أتخبط في قعر من المشاعر الحزينة التي تلقّنا جرّاء ما يحدث للبشرية.

ولكن يبدو أنه عليّ استكمال المسير مع مراعاة تخطي قنطرة الذّاتية. ولذلك عليّ الطّواف بعدد من العادات القديمة التي كانت تلازمني أثناء فترة مراهقتي وأريد استعادتها. فإلى جانب شراهة المطالعة التي كانت كدماء تجري في عروقي، أبدعت في جمع الطّوابع البريدية والنّقود المعدنية. أنا أملك أرشيفا مهما يعود إلى فترات زمنية متباينة جمعته خلال الثمانينات من القرن الماضي.

استعدت إذن تفاصيل صداقتي مع هواياتي المفضلة، وقررت التفرّغ لفحصها وإعادة تبويبها وتنظيمها لتستعيد حياتها ومكانتها في قلبي خلال كل هذا الفراغ من الوقت. وقد دعوت أصغر أطفالي (06 سنوات) لمشاركتي هذه الهواية التي وجدها لعبة مسلية. فالواقع أن اخته (20 سنة) وأخوه (14 سنة) لم يقبلا بعرضي على اعتباري انحدر من جيل قديم. لا أخفي أنهما اعتبرا أنّ هذا النّوع من الهوايات ليس ممتعا أو مفيدا، بل هو مضيعة للوقت والجهد، ولا يتعدى سوى عملية جمع مربعات ومستطيلات ورقية مطبوعة، وحفظها داخل ألبومات.

لم يؤثّر رأيهما علي، وقررت أن أبقى لساعة أو ساعتين يوميا أتأمّل اختلاف ألوانها وأشكالها ونوعية ورقها وحكاياتها. وكم كان السفر عبرها جميلا! عبر زمن الطوابع التي بلغ عددها 587 طابعا بريديا (جزائرية، فرنسية، روسية، يابانية، انجليزية، سورية)، و301 قطعة نقدية (جزائرية، فرنسية، روسية، سورية، تونسية، سودانية، مغربية، تركية). أعترف أنّ حبي الكبير لهذه الهواية لا يمكن مقارنته، بعشقي المجنون للمطالعة، فهذا الشّغف تمتد جذوره إلى مرحلة المدرسة الابتدائية، حيث سقاه اهتمام أبي حتى نمى رويدا رويدا.

كانت لدينا مكتبة بيتية تحوي عناوين مختلفة باللغتين العربية والفرنسية، فضلا عن وجود كلّ أنواع الجرائد اليومية والدورية الوطنية وغير الوطنية، التي كانت تصل ابي

بفضل عمله بالوكالة الوطنية للنشر والإشهار. تمكّنت من قراءة الجرائد في السّنة الأولى ابتدائي، وكنت أحب مطالعة جريدة الشّرق الاوسط وجريدة الشعب الجزائرية. كما قرأت كل القصص العالمية وقصص الانبياء، والسيرة النبوية، وطالعت قصصا مصوّرة باللغة الفرنسية. وأحتفظ إلى غاية هذه اللحظة بقصص غريبة الحجم (5سم 7 X سم).

لاحقا اصبحت في مرحلة المراهقة اميل الى قراءة جريدتي الاهرام والمجاهد. وكنت اتسابق مع شقيقي في حفظ فرائد الادب من خلال مطالعة "المنجد في اللغة الاعلام"، والذي حفظنا منه ايضا حياة العلماء والمؤرخين والكتاب والأبطال... كما حفظنا عددا كبيرا من الكلمات الفرنسية بفضل قاموس Le dictionnaire Quillet de la langue française.

لا أزال أتذكر أنني اتجهت في مرحلة الثانوية إلى قراء الروايات باللغتين العربية والفرنسية، فقرأت كل روايات محفوظ نجيب، والمنفلوطي وطه حسين، جبران، ومولود معمري وكاتب ياسين... وقرأت بالفرنسية كثيرا للكاتبة باربارا كارلونت Barbara Cartland، وحاولت ترجمة رواية للكاتب الفرنسي الروسي هنري ترويا Henri Troyat.

كما لم اعزف عن القصص القصيرة المترجمة إلى اللغة العربية للأديب الامريكي جون شيفر John w. Schafer. أما بقية القائمة فقد اكملتها عندما كنت طالبة في الجامعة. في الحقيقة عانيت كثيرا من نَهم المطالعة binge reading، هذه الشراهة جعلتني أقرأ بينما أغسل الصحون، رغبة في معرفة ماذا سيحدثا لاحقا لاحداث الرواية.

ولا يبدو أني تمكنت من الهرب منها تمامًا. لذلك ما ان مر اسبوع واحد على الحجر حتى عدت إلى المناجاة جريا لكتب كنت قد قرأتها من قبل، وأخرى أجلّت قراءتها. وعدت إلى رفوف المكتبة البيتية التي لا تزل تصاحبني، وربما توسعت دائرة هذه الشراهة لدي بفضل ما توّفره الانترنت من خيارات في صيغة pdf، لتتفاقم وضعية الألفة التي كونّتها مع الكتب الالكترونية وتسيطر على نصف وقتي، إلى درجة أنّني لم اعد قادرة على مغادرة الكرسي بسبب التصاق عيناي بالشّاشة.

4.4. الافتراضي ملاذ العائلة

اليوم وقد مرّ على الوباء خمسة وخمسون (55) يوما، لا أزال أتقيّد بالمحظورات وبحملة "أبقي في دارك"، وبعدما قّمت دروسا افتراضية لا ازال أتواصل واجيب على تساؤلات الطّلبة وأصحّح اليكترونيا مذكرات طور الماستر التي أشرف عليها. ولأنّ السّهرات أصبحت طويلة خاصة خلال الشهر الكريم، خصصت وقتا للإبحار الافتراضي وللتواصل مع عالم المواقع الالكترونية بحثا عن شيء قد يفيدني، أو يساعدني على التكيف مع كل هذا الوقت الذي لم نعد نبحث فيه إلا عن الأمل في استمرار الحياة.

هذه التغيرات التي طرأت على الحياة الاجتماعية جرّاء الأزمة العالمية، أثّرت على عاداتي اليومية، وأعادت ترتيب أدوات تواصلي، بل غيّرت بعض القيم الاجتماعية (Social values) لدي! إذ لم أعد مثلا ألوم أطفالي على الالتصاق بهواتفهم أو أجهزة الكومبيوتر، فما الذي سيفعلونه بكلّ هذا الوقت بين أحضان جدران البيت؟! نعم لم أعد انتقدهم كما كنت خاصة وأنّني أعرف جيّدا ميولاتهم في هذا العالم الافتراضي، ومعرفتي باهتماماتهم وقدراتهم تزداد مع توالي الأيّام، لذلك سأحاول الاستثمار فيها.

لا أخفي أنّ يوميات (dairy) ابني زمن ما قبل الفيروس كانت مقسومة بين وقت للدّراسة وآخر لممارسة الرّياضة، أما اليوم أصبح يقسم وقته بين التّدرب لبعض الوقت، وحفظ القرآن لساعتين، ثمّ استخدام هاتفه الذّكي أو لوحته الاليكترونية لساعات، ورغم أنّ رقعة سعادته تتسع عندما يكتشف تطبيقات جديدة مهمة!

إلاّ أنّه في بعض الاحيان يستظلّ بمسلسلات الانيميا (anime) من نوع الاكشن والمغامرات (shounen) الموجهة الى ذكور الفئة الاقل من 15 سنة، وكثيرا ما كان يقرأ المانغا لمواصلة أحداث بقية قصّص الانيمي التي تكون طويلة وغير مكتملة، كما يتابع باهتمام ايضا "الويب تون" webtoon الكورية، وهي عبارة عن قصص كوميدية (comedy) مصورة بالألوان والتي تتمتع بشعبية كبيرة في موطنها.

وأشهد أنّ أكثر أبنائي استخداما ساعدني لأوّل مرّة في إعداد الطّعام هذه السنة في شهر رمضان وهويشاهد فديوهات (videos) على موقع اليوتيوب (youtube) مختلفة (animated gaming, educating and sport videos).

أما أخته فهي تساعدني في تنظيف وترتيب البيت، وهو ما يسمح لي بإنجاز العمل في وقت أقل، ويمنحني وقتا إضافيا، كما يتيح لي بقضاء وقت معها لتبادل الاراء والأفكار حول ما

تطلع عليه في الشارع الالكتروني خاصة ما يعجبها. في بداية الحجر كانت تتابع دروسها عن بعد، وبمجرّد أن توقفت الدروس، انغمست في استخدام هاتفها وجهاز الكومبيوتر الذي تمتلكه بهدف مشاهدة الدراما الكورية المدبلجة إلى اللغة الانجليزية، توجهها المحموم إلى مشاهدة هذه الدراما لم يزعجني أيضا لأنّني أدرك أنّها الدّراما الوحيدة المتاحة بشكل مجاني على مختلف المواقع بخلاف المنتجات الأمريكية والبريطانية التي تتطلب مقابلا ماديا للحصول عليها. ابنتي تشاهد حسب مزاجها (mood)، فعندما يكون مزاجها جيد تتابع ثلاث حلقات يوميا، وفي حالة العكس فإنّها تشاهد حوالي 13 حلقة متتالية دون ملل.

في الواقع هي شابة تميل أكثر إلى مشاهدة القصص التاريخية والطبية والكوميدية والميلودراما(melodrama)، كما تشاهد أيضا بعض القصص الواقعية slice of life التي تنشر في شكل انيميا عبر المواقع الالكترونية، والتي تحكي جزءا هاما من قصّة حياة لشخصيات حقيقية. وهي مستهلكة لهذه المضامين تحاول أيضا أن تكتب الرواية باللغة الانجليزية حيث كتبت أربعة فصول لحدّ الآن من رواية تطمح لنشرها. اما بالنسبة للشّيء الذي يرفهها فهو تطبيق karaoke الذي يسمح لها بالاستماع الى صوتها. كلّ هذا الوقت مع عالم بهذا الحجم فعلا لم يعد يزعجني! لذلك اعترف أنّ حدود انتقاداتي ضاقت، وانّ صرامتي طُردت.

لا أحد فينا في الحقيقة احتفظ بطقوس يومياته قبل الازمة إلا أصغر اطفالي. فهو يلعب لساعات طويلة بألعابه وبكلّ الاشياء المحيطة كأواني المطبخ، وعلى الرّغم من جرائمه البريئة لا يمكنني منعه أيضا. لقد غاب عن ذاكرته أسماء أصدقائه الصّغار بعدما طالت مدّة الحجر. ولم يعد في حياته سوى اللّعب يوميا لساعات دون تعب أو ملل، ومشاهدة برنامجين أو ثلاثة على قناة MBC3، ثمّ العوّدة لالتحاف الألعاب حتى يحط اللّيل سواده على النّوافذ، هنا... يقلّد اخوته؛ فيشاهد بعض الفديوهات التي تروج لألعاب الأطفال children lifestyle videos، إذ لم يحرمه والده من امتلاك هاتف ذكي ولوحة الالكترونية.

لست فرحة بموت الناس ولا بإصاباتهم بالوباء، ولكنّني سعيدة ببقائي إلى جانب أطفالي كلّ هذا الوقت. سعيدة لأنني اطلعت على حزمة اهتماماتهم، ووقفت على صفحات

أحلامهم، كما سجلت في حق أصغر ابنائي أهم ملاحظة، تتمثّل في تغيّر تصرفاته. قبل اليوم لم يكن يرقد إلاّ بعد مشاكسات عنيفة، كان يدخل إلى البيت معكر المزاج... نبرة صوته مرتفعة، يبحث عن خلق مشاكل مع اخواته، يتوغّل في أزقة دلال، وبكاء متعال على اشيائهم التي ليست من حقه، طلباته لا تنتهي، شراهته للسّكريات تمتد كالزّرافات، لقد تخلّى عن كلّ هذه الحالات، وأصبح طفلا ناعما لطيفا هادئا همه الوحيد اللّعب.

5. مناقشة النتائج

بعد إنهائنا لهذه التجربة البحثية التي اعتمدت على الملاحظة الذاتية والسرد القائم على الوصف المكثّف لمختلف اليوميات والكقوس التي مارست العائلة خلال فترة الحجر الصّحي، نرى من الأهمّية حصر بعض النّتائج:

- الاثنوغرافيا الذاتية ليست إلا شكلا من أشكال البحث العلمي الحديث، الذي يتطلّب جرأة باحث (مؤلّف) يكون موضوع البحث في حد ذاته من خلال محاولته لاستعادة الوقائع والأحوال والأفعال ضمن أسس سردية تهدف إلى انتاج المعرفة. وتكون نتائج البحث المعمّق لحدود الخبرة الذاتية غير قابلة للتّعميم، وقد تكون قابلة للتحويل عبر تجربة حياة أحد الأشخاص، ولكن التعميم غير مقصود من البحث الإثنوغرافي الذاتي المرتبط ارتباطًا وثيقًا بخصائص وسياق الباحث. ومع ذلك يمكن للقراءات والتحليلات المقدمة أن ترتبط بنتائج واستنتاجات دراسات أخرى موجودة، لأنّها تحاول توضيح ما كان بالفعل حاضرا وواقعا، حتى لو اتهمت على عدم القدرة على التّحرر من قوة الانفعالات، وسيطرة الأهواء والتمثلاث نحو أفق وأسس عقلانية، لكنّها تبقى تعبر عن حياة فرد مهم حتى لو كان جزءا غير مرئي من المجتمع لأنّه يمكنه توفير البيانات الهامة.

- إنّ ثورة البحث عن الذّات أو التركيز على الحالة الفردية من خلال البحوث الاثنوغرافية الذاتية تشبه جرأة الكتاب الذين انحازوا إلى الافصاح عن حياتهم الخاصة مثلهم في ذلك مثل أدباء السيرة الذاتية، وبعدما اعتبر الافصاح عن الحياة الخاصة لزمن طويل من المحظورات، أصبح مع الوقت متاحا لغير فئة الكتاب الأدباء. من جهتهم دخل الباحثون الاثنوغرافيون هذه المغامرة لاعتبار الباحث فردا له تجاربه الشّخصية ضمن سياقه الثقافي والاجتماعي والسياسي... وأنّ تقرير السّرد

الذّاتي الذي يركزّ فيه على مختلف ممارساته كأفعاله وتصرفاته وعلاقاته وتفاعلاته... وكلّ ما يمكن أن يقدمه حول ما يعايشه قد يفتح إمكانيات جديدة للبحث ولاستكشاف التّعبير عن الذّات، بغض النّظر عن الزمان، أو المكان، أو الوسيط، أو الجندر. وعلى هذا الأساس تؤدي عملية تقييم الذات لا محالة إلى بناء معنى من خلال تقييم الأحداث، التي ينظر إليها على أنّها من عوامل البناء الذّاتي.

- إنّ الوضع المعاش من قبل الباحثة يبيّن كيف سهر الوباء على تدبير الحياة الفردية والجماعية، وكيف أعاد غربلة وتشكيل العلاقات الاجتماعية. ورغم أنّ فرض الحجر هو أداة ضبط اجتماعية تستهدف ضمان سلامة الفرد والمجتمع، يمكن اعتبارها ايضا أداة ساهمت بطريقة ما في تفتيت عناصر التكتل البشري في شكل أفراد. هنا نلاحظ أنّه حلّت مكان عصبية "التواصل الاجتماعي" قواعد "التباعد الاجتماعي"، وحلّ "الآخر البعيد" محل "الآخر القريب"، وبرزت الانانية كصفة أساسية للإنسان الخائف من الوباء، الرّافض للموت والجوع على حد سواء، فالرغبة الملحة على البقاء أدّت إلى التّسابق لتكديس المواد الغذائية. بالمقابل تكون المبالغة في العناية بالذات أحد اهم التّقاليد الايجابية التي لا يجب أن ترفع قيودها عن ثقافة الفرد، لأنّها تخدم تعاليم الوقاية الجماعية.

- وجد العالم الافتراضي من جهته بكل ما يحويه من سليبات وايجابيات ومن تطبيقات ومواقع ومعلومات ومنتجات درامية... البيئة المناسبة لمواصلة حملة التفتيت وفرض الوجود اللامتناهي، إذ باتت البديل المفروض بإلحاح خاصة أمام سيادة الاكتئاب والعزلة وتدهور العلاقات الاجتماعية المتباينة. ورغم أنني حاولت أن تكون المساحات الزّمنية المتوفّرة لدي فرصة لتوطيد العلاقة الأسرية، والاستمتاع بالهدوء، والابتعاد عن الضغوطات اليومية، من خلال استرجاع الذكريات الجميلة من الماضي ومحاولة معايشتها من جديد زمن كورونا، مثل بعض الهوايات إلا أنّني لم أستطع التخلي عن الافتراضي الذي انساب بنعومة حتى أضحى جزء هاما من يومياتي. من جهته كان وقت الفراغ المتاح فيصلا في تحديد وتوطيد هذه العلاقة أيضا.

خاتمة

فسحت تجربة تبني الاثنوغرافيا الذاتية للباحثة المجال للغوص في ورشة يومياتها، التي تتلاقى فيها أشكال متنوّعة من التفاصيل العادية المألوفة، على الأقل هذا ما كانت تبدو عليه قبل الدّراسة. وهي تحاول الالتزام والتقيّد قدر المستطاع بتقاليد هذا المنهج، لرسم الحدّ الفاصل بين الذات الباحثة، والذات المبحوثة، حصدت إمكانية تقديم نفسها ليس على النحو الذي تريده، او تتمنى ان تعيشه، وإنما بنحو الذي يرى نفسه في المرآة، وشتان ما بين الذي يرى نفسه في المرآة والذي يرها بعيون الآخرين.

أن اقتحام ميدان دراسات الاثنوغرافية الذاتية سيهزّ حتما العديد من تفاصيل الحياة الخاصة ليطرح اشكالية الحق في الحياة كالتي طرحت على مستوى الفضاء الرّقمي، فضلا عن ميلاد انشغال اخلاقي وهو نوع المعايير الجديدة لأخلاقيات البحث العلمي في هذا المجال الذي يعيش بين شقين، إذ الباحث في هذا المضمار من جهة يكتب عن حياته للأخر الذي سيكون له حق القراءة والتأويل المتباين، ومن جهة عليه بالموضوعية في نقل الخيوط الرفيعة المكونة ليومياته وممارساته.

المراجع

1. Allen-Collinson Jacquelyn, 2012. Autoethnography: situating personal sporting narratives in socio-cultural contexts, *Qualitative Research on Sport and Physical Culture*, Emerald Publishing, pp.191-212.
2. Billonl Dominique, Ezan Pascale. Auto-ethnographie oriente marché: Application à l'étude des relation de famille du chercheur et la marque APPLE, 16 èmes journées normandes de recherches sur la consommation: société et consommation, 23-24 Novembre, le Havre, (article disponible en ligne), consulte le 03 05 2020 a 21.35 sur : https://www.nimec.fr
3. Cléret Baptistel,2013. L'ethnographie comme démarche compréhensive: immersion dans les dynamiques consommatoires du rap en France", *Recherches qualitatives,* vol 32 (2), p 51-52.
4. Denzin Norman k., 2006. Analytic Autoethnography, *journal of contemporary ethnography,* volume 35, no 4, Sage Publications, p 419-428.
5. Dubé Gabrielle, 2016. L'auto-ethnographie : une méthode de recherche inclusive, *Présences, revue transdisciplinaire d'étude des pratiques psychosociales,* vol. 9, 2016, p 3-23.
6. Dupont Louis, 2014. Terrain, réflexivité et auto-ethnographie en géographie, *Géographie et cultures*, nº 89-90, p 93-109.

7. Ellis Carolyn, 1999. Heartful autoethnography, *qualitative health research*, volume 9 nº 5, p 669-683.
8. Ellis Carolyn, Adams Tony et Bochner Arthur, 2011. Autoethnography: an overview, *Qualicative Social Research*, vol. 12, no. 1, p. 273-290.
9. Fetterman David, 1998. Ethnography: step-by-step, *Sage Publications*, Second Edition, U.S.A.
10. Genzuk Michael, 2003. A synthesis of ethnographic research, center for multilingual, multicultural research, university of Southern California, (article disponible en ligne), Retrieved 10 05 2020 at 11 20, from http://www-rcf.usc.edu/~genzuk/Ethnographic_Research.html
11. Kelley Alysson, 2014. Layers of Consciousness: An Autoethnographic Study of the Comprehensive Exam Process, *International Journal of Doctoral Studies,* volume 9, p 347-360.
12. Laplatine François, 1995. L'ethnologue, le traducteur et l'ecrivain, *Meta,* vol 40, nº 3, septembre, p 497-507.
13. Rondeau Karine, 2011. L'autoethnographie: une quête de sens réflexive et conscientisée au cœur de la construction identitaire, *Recherches Qualitatives*, vol. 30 (2), p. 48-70.
14. Sparkes Andrew C., 2000. Autoethnography and Narratives of Self: Reflections on Criteria in Action, volume 17, janvier, Sociology *of Sport Journal*, pp 21-43.